

التنين الطاغية

ترجمة: . د. نوفل الجريان

التنين الطاغية

كان موقفاً مهيباً... لكنه في المقابل موقفٌ معتاد أيضاً وما أقسى اعتياد الألم حد الخدر ...
حشد كبير جداً مؤلف من مئة ألف من الرجال والنِّساء الكهول جمُعوا في ساحة كبيرة يحيط بها سياج حديدي ،كانت تعلو وجوههم علامات البؤس والرعب وتشخص أبصارهم نحو الجبل المشرف على الساحة وقد بلغت القلوب الحناجر، بينما أطلق قطار طويل عويلاً جنائزياً مرعباً، مؤذناً بقرب تحركه ووجوب صعود الجميع إليه.
خارج السياج تجمعت أعداد غفيرة أخرى تراقب الجمع بعيون دامعة وتتعالى صيحاتهم وهم ينادون أحبائهم وقد أيقنوا أنها المرة الأخيرة التي يرونهم فيها ...
سيق الحشد تحت حراسة مشددة نحو المقطورات ليتوجهوا إلى المصير المحتوم وعلا النحيب من الجانبين، بين الجموع كان طفل صغير يلوح لجدته وهو يبكي بحرقة حتى غاب القطار خلف الجبل.
لم تكن تلك المجموعة من الكهول هي الأولى التي تساق إلى قمة الجبل إلى غير رجعة، فقد سبقها خلق كثير من أفراد المملكة التي تعيش في أقصى الأرض.
بدأت القصة قبل عدة قرون عندما ظهر تنين هائل على قمة الجبل، كان وحشاً ضخماً ذا عينين حمراوين تبدوان كجمرتين تشعان بالشراسة والعدوانية، وفكين كريهين يسيل منهما لعاب أصفر لزج، وكان جسده مغطىً بحراشف سوداء سميكة!
راح التنين يعيث في أرض المملكة فساداً ودمر كل ما وطئته قدماه قبل أن يطلب من الملك أن يرسل إليه كل ليلة عشرة آلاف من الرجال والنساء يشبع بهم بطنه الكبيرة لقاء أمان المملكة وباقي ساكنيها.
رفُض طلب التنين في البداية، وهاجمه جنود ومحاربو المملكة مستخدمين أفضل ما لديهم من الأسلحة وأكثرها قوةً وحِدَّة ولكن أحداً لم يستطع أن يقف في وجه اللهب الذي يطلقه من فمه! وتحول الجيش الذي هاجمه إلى كتلة من الفحم خلال لحظات وحتى قبل أن يقترب الجنود منه بما فيه الكفاية لتصل إليه أسلحتهم.
جرب الجميع حظهم في ردعه فألقى السحرة تعاويذهم تجاهه ولكن دون جدوى، وابتكر الكيميائيون عقاقير ومشروبات سامة علها تقضي عليه إذا ما ابتلعها فكان تأثيرها الوحيد هو زيادة شهيته ودمويته.
بعد كل المحاولات الفاشلة تسلل اليأس إلى النفوس وبدا لأفراد المملكة وملكها أن التنين وحش لا يمكن هزيمته على الإطلاق وبات كل الشجعان الذين قرروا مواجهته يوصفون بالحمقى أو المجانين .
وهكذا لم يكن أمامهم خيار إلا الاستجابة لطلبه وتنفيذ أوامره صاغرين، ووجدوا أن تسليم الأرواح إليه عند قمة الجبل وفي الموعد المحدد كل يوم هو الخيار الأسلم والأقل ضرراً للمملكة وشعبها.
في ظل حالة الشلل والعجز التام تلك، وسعياً لمواساة وإقناع أولئك المختارين للفداء ظهرت -وبدعم من الملك وحاشيته- فئة من الناس يعدونهم بحياة أخرى بعد الموت حيث لا تنين ولا طغيان، وفئة أخرى تعتبر أن وجود التنين أمر طبيعي وأن المعنى الحقيقي لحياة الإنسان يكمن في أن ينتهي الأمر به في معدة ذلك الكائن المستبد.

ومع مرور الوقت واعتياد الناس على الراحلين بتلك الطريقة البشعة أصبح التنين تدريجياً حقيقة من حقائق الحياة ومسلماتها وتركزت الجهود على كيفية إرضائه وتهدئته بدل التفكير في التخلص من غطرسته وعنجهيته والقضاء عليه.

01 |

في البداية كانت عملية التضحية تتم عبر اختيار كبار السن على اعتبار أنهم قد استمتعوا على الأقل ببضع عقود من الحياة لتقديمهم للتنين، فيتم جمعهم ثم سوقهم راجلين إلى قمة الجبل ليكونوا عشاءه.
وعلى مدى القرون اللاحقة عاش التنين حالة من الرخاء والتخمة وتغذى جيداً على أجساد البشر الذين يصلون إليه كل ليلة فكبرُ وتضخم حجمه وراحت شهيته تزداد أكثر فأكثر، ولم تعد تكفيه عشرة آلاف جثة بشرية وبدأ يزيد مطالبه بشكل تدريجي حتى وصلت إلى ثمانين ألفاً كل ليلة وتطلب الأمر تطوير طريقة وصول هذا العدد الهائل إلى قمة الجبل في أسرع وقت ممكن فأنشأ الملك سكة حديد تحمل مقطوراتها المكتظة الإتاوة البشرية كل عشرين دقيقة وتنطلق بها من سفح الجبل إلى قمته وتعود فارغة تماماً

فرضت المأساة اليومية المتمثلة بوجود التنين وكل ما ترتب على ظهوره من تبعات والتي باتت جزءاً من حياة المملكة وسكانها ظهور علماء متخصصين في علم التنين، يدرسون فيه تصرفاته وردود أفعاله وبنيته الفيزيولوجية والداخلية من خلال جمع عينات من حراشفه وفضلاته ولعابه المتساقط، ومع تقدم هذه العلوم ازداد فهمهم لطبيعته فاكتشفوا مثلاً أن الحراشف السوداء التي تغطي جسده أقسى من أي مادة أخرى خبرِوها من قبل، وأنه لا سبيل إلى اختراقها على الإطلاق، وأثار ذلك فضول العلماء فراحوا يطورون الأجهزة العلمية ويبتكرون أفكاراً جديدة من شأنها حل مشكلة ذلك الثقب الأسود الذي يبتلع عشرات الآلاف من الناس يومياً ، وبدأت عجلة الاختراعات التي كانت معدومة سابقاً تدور ببطء ثم تسارعت تدريجياً وحققت قفزات لم يكن من الممكن للبشر تصورها من قبل.
أحد العلماء ذهب بعيداً في دراساته وتوقعاته إلى حد التنبؤ بأن التقدم العلمي الذي تحقق سيمكن المملكة وسكانها في النهاية من اختراع أداة ما قادرة على قتل التنين وتخليص البشرية منه إلى الأبد، غير أن أفكاره ودراساته وتوقعاته تلك تم استنكارها بشدة واعتبره كثيرون ممسوساً وغريب الأطوار، بل وأصبح منبوذاً وغير مرحب به في المجالس العلمية.
رفضت حاشية الملك ما جاء به ذلك الرجل مستشهدة بكتب التاريخ التي تزخر بمئات بل آلاف المحاولات التي فشلت في القضاء على التنين، بل إن الكثير من تلك المحاولات انتهت بكوارث تفوق قدرة البشر على التحمل ،والمفارقة أن نهاية ذلك العالم كانت بأنه قُدِّم، هو الآخر، طعاماً للتنين الذي تنبأ بالقدرة على قتله يوماً ما.
بعد عقود قليلة ناقش بعض علماء التنين النظرية التي جاء بها ذلك العالِم المنبوذ معترفين بأن قتل التنين لن يكون سهلاً أبداً ولكنه في الوقت ذاته ليس مستحيلاً وإن الأمر يتوقفَ على اختراع مادة أقسى وأكثر

صلابة من درع التنين المدجج بالحراشف وتشكيلها على شكل مقذوفات فإن تم لهم ذلك أصبحت عملية التخلص من التنين أقرب من أي وقت مضى.
مرة أخرى قوبلت الفكرة بالرفض من قبل زملائهم المتخصصين بحجة أن العلم لم يكتشف أي مادة معروفة أكثر صلابة من درع التنين، ومع العمل الدؤوب استطاع أحد محاربي الأفكار والمعتقدات الجامدة والراسخة في إثبات أن مقياس قساوة حراشف التنين يمكن أن يثقبه جسم مصنوع من مادة مركبة معينة، واستطاع أن يستقطب العديد من علماء التنين الذين كانوا متشككين في السابق للانضمام إليه، وتمكنوا معاً بعد الكثير من الجهد من إنتاج تلك المادة واكتشفوا أن صنع قذيفة ضخمة من المادة وإطلاقها بقوة كافية نحو درع التنين سيكون كفيلاً باختراقه وقتله، ومع ذلك فإن تصنيع الكمية المطلوبة من المادة المركبة سيكون مكلفاً للغاية .

| 02

أرسلت مجموعة من علماء التنين والمهندسين البارزين عريضة إلى الملك يطلبون فيها تمويلاً لمشروع القذيفةالمضادة للتنين، ولكن الملك في تلك الفترة كان منشغلاً بقيادة جيشه الذي خرج يطهر بعض مناطق المملكةمن النمور التي تزايدت أعدادها وباتت تشكل خطراً مضافاً على السكان والمزارعين وفي خضم ذلك أهُملتالعريضة ثم فقُدت في دواوين القصر أو يمكن القول إنه قد نسُي أمرها.
بعد فترة من الزمن أرسل الملتمسون عريضة أخرى فتلقوا رداً من أحد أمناء الملك يفيد بأن الملك سينظر في طلبهم بعد الانتهاء من مراجعة الميزانية السنوية لإدارة شؤون التنين، كانت ميزانية ذلك العام هي الأكبر فقد تضمنت تمويل مسار سكة حديد جديدة إلى الجبل إذ لم يعد المسار الأصلي قادراً على استيعاب الأعداد المتزايدة خصوصاً بعد أن زادت الإتاوة البشرية التي يطالب بها التنين إلى مئة ألف إنسان، وفي الوقت الذي تم فيه اعتماد الميزانية أخيراً، وصلت تقارير من منطقة نائية من المملكة ذكُر فيها أن قرية ما تعاني من غزو الأفاعي الجرسية ،وعندها كان على الملك المغادرة بشكل عاجل لتعبئة جيشه والانطلاق لهزيمة هذا التهديد الجديد، ونتيجة للظروف المستجدة تم إهمال عريضة مشروع السلاح المضاد للتنين ورميها في خزانة مغبرة في قبو القلعة ونسي أمرها مرة أخرى.
استدعى الإهمال المتكرر لمطالب القائمين على مشروع السلاح تحركاً من نوع آخر، فقرروا التجمع والنقاش فيما يجب فعله، وبعد جدل طويل اتفقوا على حل قد يشكل ضغطاً على الملك...
وخلال الأسابيع التالية سافروا إلى جميع أنحاء المملكة وعقدوا الندوات وألقوا المحاضرات ونقلوا ما توصلوا إليه إلى عامة الناس محاولين زرع بذرة الأمل فيهم بإمكانية القضاء على التنين .
في البداية كان الناس مترددين فقد تعلموا في المدارس أن التنين وحش لا يقهر وأن وجبته اليومية التي طالب بها من البشر يجب أن تُقبل كحقيقة من حقائق الحياة، ومع ذلك فإن الرغبة في الانعتاق من سلطة التنين الطاغية وما سمعوه من العلماء أثارت فضول الكثيرين، وبدأ المواطنون يتوافدون لحضور محاضرات مشروع سلاح التنين من كل أرجاء المملكة، وساد الشارع حراك واضح وراحت المسيرات المطالبة بتطبيق وتوفير الدعم لهذا الاقتراح تخرج في الشوارع بشكل يومي.

وصل خبر الحراك الشعبي إلى الملك فاستدعى مستشاريه وسألهم عن رأيهم بما يحدث، فأبلغوه بالعرائض التي تم إرسالها من قبل وأسباب عدم الرد عليها، وفي الوقت ذاته أرادوا تشويه صورة أصحاب المشروع بتصويرهم كمثيرين للشغب ومتسببين في نشر الاضطرابات بين العامة، وحاولوا إقناعه بأن قبول الناس بحتمية تقديم البشر إلى التنين أفضل وأكثر جدوىً بالنسبة للنظام الاجتماعي، كان بقاء التنين يصب في مصلحة بعض المتنفذين ومستشاري الملك بهذا الخصوص فقد كانت إدارة التنين توفر عدداً لا بأس به من الوظائف وميزانية معتبرة وكان كل ذلك سيضيع إذا ما تم قتل التنين .
رغم كلام المستشارين وحججهم ورغم أن خزائن المملكة كانت شبه فارغة بعد الحملتين العسكريتين والتمويل المخصص للسكة الحديدية الإضافية، إلا أن الملك كان قلقاً من أن يفقد شعبيته بين العامة، والتي ارتفعت أسهمها كثيراً بعد قضائه على النمور والأفاعي الجرسية المؤذية، إذا ما تجاهل مطالب مقدمي اقتراح محاربة التنين ومؤيديهم ولذلك فقد قرر عقد جلسة استماع مفتوحة وحدد اليوم الأخير من السنة موعداً لها أي بعد شهر كامل ودعا إليها كبار علماء التنين ووزراء المملكة وكل المهتمين.

| 03

*****

في تلك الأثناء وفي أحد بيوت المملكة وقف صبي صغير إلى جانب جدته وراح يراقبها بعينين تفيضان بالحماسو الفضول وهي تشرع بعجن بعض الدقيق والسمن، كان الصبي في غاية السعادة والفرح عندما قاطع عمل الجدة طرقات عنيفة على الباب، وعندما فتُح الباب دلف إلى البيت مجموعة من الرجال بزي أبيض كامل واقتادوا الجدة معهم في الحال ولم يقبلوا أي أعذار أو مهلة رغم توسلات أهل البيت وبكاء الطفل المرير...
كانت الجدة المسكينة ضمن الدفعة التي ستقدم في تلك الليلة إلى التنين، وخرج الصبي مع والديه لوداعها وإلقاء النظرة الأخيرة عليها.
كان موقفاً مهيباً... لكنه في المقابل موقفٌ معتاد أيضاً وما أقسى اعتياد الألم حد الخدر ...
حشد كبير جداً مؤلف من مئة ألف من الرجال والنسّاء الكهول جمعوا في ساحة كبيرة يحيط بها سياج حديدي ،كانت تعلو وجوههم علامات البؤس والرعب وتشخص أبصارهم نحو الجبل المشرف على الساحة وقد بلغت القلوب الحناجر، بينما أطلق قطار طويل عويلاً جنائزياً مرعباً، مؤذناً بقرب تحركه ووجوب الصعود إليه.
خارج السياج تجمعت أعداد غفيرة أخرى تراقب الجمع بعيون دامعة وتتعالى صيحاتهم وهم ينادون أحبائهم وقد أيقنوا أنها المرة الأخيرة التي يرونهم فيها، سيق الحشد تحت حراسة مشددة نحو المقطورات ليتوجهوا إلى المصير المحتوم وعلا النحيب من الجانبين، بين الجموع كان الصبي يراقب جدته بين الزحام ويلوح لها وهو يبكي بحرقة حتى اختفت مع المجموعة خلف الجبل.

****

حان موعد الجلسة وعُقد الاجتماع في القاعة الكبرى داخل القلعة الملكية ...
ملأ الناس جميع المقاعد وتزاحموا في الأروقة وكان الجو العام في القاعة مشحوناً والجميع في حالة من الترقب.
رحب الملك بجميع الحضور وأذِن للعلماء البارزين، الذين يقفون وراء اقتراح صناعة السلاح الذي سيُحاربَ به التنين، بالكلام، وشرحت رئيستهم كيفية عمل الجهاز المقترح وكيف يمكن تصنيع الكمية المطلوبة من المادة المركبة ونوهت إلى أنه وبالنظر إلى المبلغ المطلوب للتمويل فإنه من الممكن الانتهاء من صناعة السلاح خلال خمسة عشر إلى خمسة وعشرين عاماً، ومع وجود تمويل إضافي فقد يتم العمل خلال اثني عشر عاماً فقط ،والأمر الأهم الذي ذكرته هو أنه لن يكون هناك أية ضمانات على أن السلاح سينجح.
كان المتحدث التالي هو مستشار الملك للشؤون الأخلاقية فبدأ بالقول: "فلنفترض أن المشروع ممكن من الناحية التكنولوجية على الرغم من أنني لا أعتقد أنه قد تم إثبات ذلك فعلياً، أنتم تفترضون أنه لديكم الحق في ألا يتم ابتلاعكم وهذا، من وجهة نظري، تفكير ينطوي على الكثير من التكبر والغرور، فَقِصر الحياة البشرية هو نعمة لكل فرد سواء أدرك ذلك أم لا، والتخلص من التنين الذي تظنون أنه سينقذ البشرية، سيقوضٌ من كرامتنا الإنسانية، والانشغال بقتل التنين سيُحيدنا عن تحقيق التطلعات التي تشير إليها حياتنا بشكل طبيعي والعيش بشكل جيد بدلاً من مجرد البقاء على قيد الحياة..."

ثم تابع خطبته بصوته الجهوري قائلاً: " إنه أمر محبط، بل محبط للغاية، أن يرغب الشخص في مواصلة حياتهلأطول فترة ممكنة دون القلق أو التفكر حول الغرض الأسمى من هذه الحياة، لكن دعوني أخبركم أن من الطبيعةالفطرية للتنين أن يأكل البشر، وأن من طبيعتنا البشرية ذات الأصول النبيلة أن نكون طعاماً للتنين ولن يكتملنبل إنسانيتنا إلا عندما يتم أكلنا من قبله، نعم أيها السادة التنين ضروري، التنين خيرّ".
أصغى الحضور بانتباه لكلام المستشار الذي بدا واثقاً ومقنعاً، كانت العبارات التي تخرج منه بليغة لدرجة أنه كان من الصعب معها مقاومة الشعور بأن أفكاراً عميقة تكمن وراءها، وبدا أن كلامه استطاع أن يؤثر في شريحة واسعة من الحضور.
كان المتحدث التالي حكيمًا روحانياً يحظى باحترام واسع النطاق بسبب لطفة وإخلاصه، وبينما كان يسير نحو المنصة وقد ساد في القاعة صمت القبور، صرخ الصبي الذي فقد جدته قبل أيام من بين الجمهور وصاح بأعلى صوته: "التنين سيء!"

وبينما تبدل لون وجه والدي الطفل وهرعا إلى لومه وإسكاته التفت الحكيم إليهما وقال: دعوا الصبي يتكلم، ربما يكون أكثر حكمة مني" واصطحب الصبي معه إلى المنصة وهناك استقبل الحشد ممسكاً بيده وقال: "هناك رجل صغير شجاع يريد أن يقول رأيه تفضل يا صغيري"
قال الصبي وقد بدأ صوته بالتهدُّج وهو يحاول أن يخفي بكاءه: "أريد أن تعود جدتي" ثم ما لبثت أن انهمرت الدموع من عينيه الواسعتين، وهو يتابع كلامه: " وعدتني جدتي بأن تعلمني كيفية إعداد كعك الزنجبيل لعيد الميلاد. قالت إننا سنصنع منزلًا صغيراً من خبز الزنجبيل ورجال خبز الزنجبيل الصغار الذين سيعيشون فيه، ثم جاء هؤلاء الأشخاص الذين يرتدون ملابس بيضاء وأخذوا جدتي بعيدًا إلى التنين ... التنين سيء ويأكل الناس ... أريد أن تعود جدتي!"
كانت لا تزال قائمة المتحدثين في ذلك المساء ممتدة، لكن شهادة الطفل العفوية والبسيطة اخترقت الفقاعة التي شكلها مستشار الملك بعباراته المنمقة والبليغة وعاد المزاج المطالب بقتل التنين والتخلص منه مرة أخرى يسود أجواء القاعة المكتظة، حتى الملك نفسه قال ببساطة في بيانه الختامي: "فلنقتل التنين."

مع انتشار خبر موافقة ودعم الملك لمشروع صنع السلاح الذي سيقضي على التنين عمت الاحتفالات شوارع المملكة وتحول الدعم المحدود أو شبه المعدوم للقضية إلى أولوية كبرى، وراحت التبرعات تُجمع لمشروع القذيفة، واستجاب الملك للمطالبات الشعبية وأعلن في خطابه بمناسبة العالم الجديد أنه سوف يمرر مشروع قانون مخصصات إضافية بمستوى عالٍ من التمويل لإتمام هذا الأمر.
وهكذا بدأ المشروع في سباق مع الوقت، وتطلبت صناعة السلاح المضاد للتنين التغلب على العديد من المشاكل التقنية والوقوع في عشرات الأخطاء التي يستغرق تصحيحها وقتاً طويلاً...
كانت المهمة في غاية الصعوبة وعلى الرغم من التمويل غير المحدود والعمل الدؤوب على مدار الساعة من قبل التقنيين إلا الموعد النهائي الذي حدُد لإنجاز المهمة تأجل أكثر من مرة واختتم العقد والتنين لا زال حياً وبصحة جيدة. ولكن الجهود كانت تقترب أكثر.

وأخيراً تم تحديد موعد إطلاق السلاح في ليلة رأس السنة الجديدة وبعد اثني عشر عاماً بالضبط من الافتتاحالرسمي للمشروع وكانت هدية الأعياد الأكثر مبيعًا في ذلك العام عبارة عن تقويم يحسب الأيام بعد تنازلي حتىالصفر الذي يمثل موعد الإطلاق بحيث تذهب العائدات إلى مشروع القذيفة أيضاً.
قبل حلول العام الجديد بسبعة أيام وصلت المديرة التنفيذية للمشروع إلى القلعة الملكية وطلبت مقابلة عاجلة مع الملك وأخبرته أنه قد تم تدشين الصاروخ وفحص كل شيء وأنهم على أتم الاستعداد والجاهزية للإطلاق بمجرد أن يعطيهم الضوء الأخضر، عندها جلس الملك على كرسيه وأغمض عينيه، كان يفكر بإطلاق الصاروخ في تلك الليلة أي قبل سبعة أيام من الموعد المحدد وبذلك سينقذ

أرواح ٧٠٠ ألف شخص! ولكن بالمقابل أي خطأ سيكون كارثة كبيرة وفي حالة الفشل سيتعين عليهم صنع المادة من الصفر وتجهيز صاروخ آخر وسيكلف ذلك أربع سنوات أخرى من العمل على الأقل وسيخسر أعداد مضاعفة من البشر أرواحهم حتى ذلك الوقت...
بعد ساعة من الصمت وفي الوقت الذي ظنت فيه العالمة أن الملك قد نام، فتح عينيه وطلب منها العودة إلى المختبر وإعادة التأكد والتحقق من كل شيء مرة أخرى وأن التنفيذ سيكون في الموعد المحدد.

***

بعد الأيام السبع وبينما كان ضوء النهار آخذاً بالأفول تناثر التقنيون في محطة الإطلاق وهم يجرون التعديلات والفحوص الأخيرة وكان الملك ومستشاروه يراقبون من منصة قريبة، وعلى مسافة أبعد وخلف سياج طويل كان تجمع العوام لمشاهدة الحدث العظيم...
كان آخر أيام السنة بارداً دون حضور للرياح لحسن الحظ وبذلك كانت الظروف مناسبة تماماً للإطلاق، وبينما أشار العد العكسي الظاهر على ساعة عملاقة إلى بقاء خمسين دقيقة على الإطلاق لفت أحد المستشارين نظر الملك إلى الفوضى التي بدت عند سياج الجماهير المحتشدة...
كان أحد الأشخاص قد تمكن من اجتياز السياج وراح يجري باتجاه المنصة حيث يجلس الملك لكن سرعان ما أدركه الأمن. وتم تقييد يديه ونقله بعيداً.
أعاد الملك انتباهه إلى منصة الإطلاق ثم إلى الجبل أمامه، كان بإمكانه رؤية خيال جسد التنين المظلم المنحني بينما يلتهم ربما آخر وجبة من البشر في حياته.
كان الملك قد أمر باستمرار إرسال قطارات البشر إلى التنين حتى اللحظة الأخيرة خوفاً من أن يؤدي أي تغيير في تحرك التنين واختفائه عن مدى الصاروخ.
بعد حوالي عشرين دقيقة، فوجئ الملك برؤية ذات الرجل الذي أمسكه الأمن يعود للظهور على مسافة قريبة من المنصة مكبل اليدين، كان أنفه ينزف وكان برفقته اثنان من حراس الأمن، وبدا أن الرجل في حالة جنون هستيرية وراح يصرخ بأعلى صوته: "أوقفوا القطار الأخير..."
طلب الملك ممن حوله أن يتركوه ليصل إليه، كان موظفاً صغيراً في وزارة النقل، وكان سبب جنونه أنه اكتشف أن والده كان على متن آخر قطار متجه نحو الجبل.
توسل الشاب لإنقاذ حياة والده وحياة الآلاف من الركاب الآخرين على متن القطار الأخير ولكن الملك رفض وبشكل قاطع مبرراً بأنه لا يستطيع المخاطرة بتنبيه التنين بأي شكل من الأشكال وبينما علا نحيب الشاب كانت الساعة تشير إلى ٥ دقائق متبقية...

غادر آخر فني منصة الإطلاق بينما تعلقت بها كل العيون ومع الوصول إلى نقطة الصفر أحاطت كرة من النارمحطة الإطلاق، وانطلق الصاروخ وارتفعت أطراف أقدام الجماهير المحتشدة إلى أعلى، وشخصت عيونهم نحوالجبل البعيد، لقد جسد ذلك اللهب الذي راح يخترق الظلام روح البشرية جمعاء

بمخاوفها وآمالها وما هي إلالحظات حتى تمايل الظل القاتم في الأفق وسقط، وكان الصوت الممتد لارتطام الوحش المنهار بالأرض وكأن الأرض نفسها تتنفس الصعداء، ومع ذلك الصوت ارتفعت ملايين الأصوات من الجماهير المتجمعة بهجة وفرحاً... لقد تحررت البشرية أخيراً من طغيان التنين القاسي بعد قرون الاضطهاد.

عانق المستشارون بعضهم وهنأوا الملك على هذا الإنجاز العظيم لكن الملك بدا بمزيج من السعادة والهم وهو يرد قائلاً: "لقد قضينا على التنين الطاغية اليوم لكننا بدأنا متأخرين كان من الممكن أن يتم ذلك قبل خمس سنوات، أو ربما قبل عشر سنوات! وكنا سنتجنب التضحية بملايين الأرواح البشرية"

نزل الملك من المنصة وتقدم نحو الشاب المقيد الذي كان جالسًا على الأرض وطلب من الحراس أن يفكوا قيده ثم طلب منه أن يسامحه على عدم قدرته على إنقاذ والده، عندها وقف الشاب وقال للملك: "هل تتذكر الصبي الباكي الذي طلب منك أن تعيد له جدته قبل اثني عشر عاما؟ إنه أنا، لم أكن أدرك حينها أنه لا يمكنك فعل ما طلبته، اليوم كذلك أردتك أن تنقذ أبي وكان من المستحيل القيام بذلك أيضاً، ورغم ذلك فقد أنقذت أمي وأختي ،كيف يمكننا أن نشكرك بما يكافئ عظمة هذا الإنجاز؟"

قال الملك مشيراً إلى الحشود: "استمع إليهم، إنهم يهتفون لي لما حدث الليلة، لكن البطل الحقيقي وراء ذلك هو أنت، لقد صرخت وحشدتنا جميعاً ضد الشر، اذهب إلى والدتك وأختك واعلم أنك ستكون مع عائلتك دائمًا موضع ترحيب في القلعة، وسيتم منحك أي شيء تتمناه إذا كان ضمن قدرتي."

كان الموقف مهيباً... موقف غير عادي يختبره البشر في تلك المملكة للمرة الأولى، الملك والحاشية والعامة والأغنياء والفقراء والصغار والكبار والكهول والرجال والنساء، الجميع يلف وجوههم مزيج عجيب من البهجة والارتياح والارتباك، فقد تم استعادة حق البشرية بمستقبل مفتوح وإنهاء الخوف الذي استبد بهم على مدى قرون وإبطال الكثير من الافتراضات التي استمرت طويلاً، كانوا غير واثقين مما هو مطلوب منهم في هذا الموقف غير المألوف، وقفوا هناك مؤقتًا، كما لو كانوا يتفحصون الأرض من تحتهم ما إذا كانت ستبقى صامدة ،يتبادلون النظرات ويتأكدون أنهم في أرض الحقيقة وليسوا في عالم الأحلام.

وقف الملك خطيباً في الجماهير المحتشدة وقال: "لقد قطعنا طريقاً طويلاً لكن رحلتنا قد بدأت للتو، جنسنا البشري الآن في عمر صغير عدنا اليوم كالأطفال والمستقبل يتمدد مفتوحاً أمامنا سوف نسعى ونجتهد أن نفعل أفضل مما فعلناه بالماضي، لأننا بتنا الآن نملك الوقت اللازم لنحُسن فعل الأشياء، وننمو ونتطور، ونتعلم من أخطائنا، نملك الوقت لعملية تحول تدريجية متأنية نحو عالم أفضل، ووقتاً كافياً للاستقرار فيه، الليلة فلتقرع كل الأجراس في المملكة حتى منتصف الليل تخليداً لذكرى أسلافنا الأموات وبعدها سنحتفل حتى شروق الشمس ولنبدأ في الأيام المقبلة عملية بناءِ عالم أفضل....

تأملات أخلاقية

تقليدياً ركزت القصص المرتبطة بالشيخوخة على حاجة الانسان على إقامة كريمة و التكيف مع التقدم بالسن ،و كانت الحلول الموصى بها للتعامل مع الشيخوخة هو الاستسلام للواقع مقترنا بجهود رامية نحو تحقيق التوازن المطلوب بين الشؤون العملية والعلاقات الشخصية.

و اذا تم التسليم بالمعطيات العلمية المثبتة حاليا، و التي تنص أنه لا يمكن القيام بشيء علمي حاليا لتأخير الشيخوخة أو منعها ، فإن هذا التحليل يعتبر منطقيًا و مريحا للنفس.

واليوم نواجه وضعا مختلفا، في حين أننا لا نزال نفتقر إلى وسائل فعالة ومقبولة لإبطاء عملية الشيخوخة[١]، و لكن يمكننا تحديد اتجاهات البحث التي قد تؤدي إلى تطوير مثل هذه الوسائل في المستقبل المنظور القريب . ولم تعد القصص والأيديولوجيات "الموتية"، التي تنصح بالقبول السلبي المحبط، مصادر مواساة غير ضارة ،بل هي حواجز قاتلة تحول دون اتخاذ الإجراءات الحاسمة المطلوبة و التي يعد الجنس البشري بأمس الحاجة إليها.
إن العديد من علماء التكنولوجيا الحيويةوالعلماء المرموقين يخبروننا بأنه سوف يصبح من الممكن تأخير الشيخوخة البشرية ، وفي نهاية المطاف وقفها وعكس اتجاهها[.٢] في الوقت الحاضر، هناك اتفاق ضئيل حول النطاق الزمني أو الوسائل المحددة ، ولا يوجد إجماع على أن هذا الهدف قابل للتحقيق من حيث المبدأ. وفيما يتعلق بربط هذا بحكاية "أسطورة التنين الطاغية"حيث الشيخوخة ، بطبيعة الحال ، ممثلة بالتنين ، لذلك نحن في مرحلة ما بين تلك التي تنبأ فيها الحكيم الوحيد بزوال التنين في نهاية المطاف ، وتلك التي أقنع فيها علماء التنين الأيقوني أقرانهم من خلال إظهار مادة جديدة مركبة ذات درجة صلابة تفوق صلابة حراشف التنين.
إن الجدل الأخلاقي الذي تقدمة الحكاية الأسطورية بسيط: فهناك أسباب أخلاقية واضحة ومقنعة تدفع الناس إلى التخلص من التنين. وحالتنا فيما يتعلق بالشيخوخة البشرية تتشابه بشكل وثيق مع حالة الناس في حالة حكاية التنين. لذلك ، لدينا أسباب أخلاقية قاهرة ومقنعة للتخلص من الشيخوخة البشرية.
لا يتعلق الجدل بصالح زيادة مدى الحياة في حد ذاتها. فإضافة سنوات إضافية من المرض والوهن في نهاية العمر لن يكون له جدوى أو فائدة. إن الجدل يتعلق بمصلحة توسيع نطاق الصحة البشرية قدر الإمكان. من خلال إبطاء أو وقف مرحلة الشيخوخة الإنسانية ، سيمتد نطاق الحياة البشرية الصحية. وسيتمكن الأفراد من البقاء بصحة جيدة ونشاط وإنتاجية في الأعمار التي كان من المتوقع لهم فيها أن يكونوا في عداد الأموات.
وبالإضافة إلى هذه التأملات الأخلاقية للعامة ، هناك عدد من الدروس الأكثر تحديدًا:

١-أصبحت مأساة متكررة، أصبحت حقيقة حياة، أصبحت احصائية!

في حكاية أسطورة التنين ، تكيفت توقعات الناس مع وجود التنين، لدرجة أن الكثيرين أصبحوا غير قادرين على إدراك شره. كما أصبحت الشيخوخة مجرد "حقيقة من حقائق الحياة" على الرغم من كونها السبب الرئيسي لكمية لا يمكن فهمها من المعاناة البشرية والموت

٢-النظرة الثابتة غير الديناميكية للتكنولوجيا و التقنيات .

علّلت البشرية سبب عدم إمكانية قتل التنين مطلقاً لأن كل جميع المحاولات السابقة باءت بالفشل. ولم تأخذفي عين الاعتبار التقدم التكنولوجي المتسارع. هل هناك خطأ مماثل يقودنا إلى التقليل من فرص علاج الشيخوخة ؟

٣-أصبحت الإدارة هدفاً قائماَ بحد ذاته .

فقد ذهب سُبع الاقتصاد المملكة إلى "إدارة التنين" وهو أيضاً جزء من الناتج المحلي الإجمالي الذي تنفقه الولايات المتحدة على الرعاية الصحية. وأصبح الحد من الأضرار محوراً حصريًا لدرجة أنه جعل الناس يهملون السبب الكامن وراء ذلك .فبدلا من برنامج بحثي ضخم ممول من القطاع العام لوقف الشيخوخة ، أصبحنا ننفق ميزانيتنا الصحية بأكملها تقريبا على الرعاية الصحية وعلى البحث في الأمراض الفردية.

٤-حدث انفصال بين ما فيه مصلحة المجتمع بأكمله وبين ما فيه الخير والمنفعة للفرد على وجه الخصوص

لقد كان مستشارو الملك قلقين بشأن التحديات الاجتماعية المحتملة التي قد يسببها مناهضو التنين . قالوا أنه لن يأتي أي خير معلوم للمجتمع من زوال التنين. بيد أنه في نهاية المطاف ، الأوضاع الاجتماعية التي وجدت بسبب التنين، وُجدت لصالح الناس

٥-فقدان الشعور أهمية تحديد الأولويات

نمر قتل مزارعًا، أفعى جرسية ابتليت بها قرية، الملك تخلص من النمر والأفاعي الجرسية ، وبالتالي قدم خدمه لشعبه. ومع ذلك كان على خطأ ، لأنه أخطأ في ترتيب وإدراك أولوياته.

٦-الجمل البليغة والخطابات الجوفاء .

كان المستشار الأخلاقي للملك يتحدث ببلاغة عن الكرامة الإنسانية وطبيعتنا التي حددها النوع البشري[٣] . ومع ذلك كان الخطاب بمثابة ستار دخاني يخفي الواقع الأخلاقي بدلاً من كشفه، وعلى النقيض من

ذلك ، تشير شهادة الصبي البسيطة غير المتقنة ولكنها صادقة إلى الحقيقة المحورية للقضية: فالتنين سيئ ؛ إنه يدمر الناس .
هذه أيضًا الحقيقة الأساسية حول الشيخوخة البشرية.

٧-الفشل في تقدير الحاجة الملحة .

حتى وقت متأخر جدًا من القصة ، لم يدرك أحد بشكل واضح ما كان على المحك. فقط بينما كان الملك يحدق في الوجه الملطخ بالدماء للرجل الشاب عندها بدأ حجم المأساة بالتبلور . البحث عن علاج للشيخوخة ليس مجرد شيء "لطيف"،كمالي ينبغي علينا القيام به . إنها ضرورة أخلاقية ملحة وصارخة. وكلما أسرعنا في بدء برنامج بحثي مركزّ، كلما أسرعنا في الحصول على النتائج . و مما يدل على الأهمية البالغة لهذا الموضوع ، أن نحصل على العلاج في غضون ٢٥ عاماً وليس في غضون ٢٤ عاماً سيعني ذلك أن عدد الناس الذين سيموتون سيكون بمقدار عدد سكان كندا في غضون هذا العام الفارق. في هذه المسألة بالتحديد، الوقت يساوي الحياة، بمعدل ما يقارب ٠٧ حياة في الدقيقة الواحدة ستنفق . ومع مؤشر قياس يتحرك بهذه السرعة و هذه الشراسة ، يجب علينا أن نتوقف عن الاستهتار والمماطلة.

٨-وفي الأيام القادمة... أعتقد أنه لدينا عملية إعادة تنظيم علينا القيام بها!

الملك وشعبه سيواجهون بعض التحديات الكبرى عندما ينتهون من احتفالهم بهذا النجاح الكبير. كان مجتمعهم متكيفا مع ،ومشوّهًا بوجود التنين لدرجة أن غيابه سيتشكل فراغًا مخيفًا وسيتعين عليهم أن يعملوا بشكل خلاقٍ ومبتكر، على الصعيدين الفردي والمجتمعي على حد سواء ، من أجل تهيئة الظروف التي من شأنها أن تحافظ على حياة مزدهرة وديناميكية وذات مغزى إلى ما بعد هذا الجيل. و لحسن الحظ ،أن الروح البشرية قادرة التكيف. وثمة مسألة أخرى قد يواجهونها في نهاية المطاف وهي الاكتظاظ السكاني. ربما سيكون على الناس أن يتعلموا أن ينجبوا أطفالا في وقت لاحق وأقل تواتراً. ربما يمكنهم إيجاد طرق لاستدامة عدد أكبر من السكان باستخدام تكنولوجيا أكثر كفاءة. لرَبُمَّا هم سَيُطوّرونَ يوماً ما سفن فضائية ويَبْدأُ إستعمار الكونِ. ويمكننا الان ان نترك هذه التحديات للأجيال القادمة ،الأشخاص المستقبليين الذين سيعيشون طويلاً لمواجهة هذه التحديات الجديدة , والتعامل معها ، بينما نحاول نحن أن نحرز بعض التقدم في مغامرتنا الخاصة .
[٤]